



هنا أضع أظاني .. هنا يهبط الوحي ..
وسط ذلك الصمت المخيم والسكون السائد ،
وبين أضواء الشموع الذائبة المرتجفة ..
هنا في هذه الأغوار السحيقة والدياجير
المعتمة التي تبدو كأنها أعماق الأبدية
اللانهاية .

مفتوح القناع

سيرىالى . . .

لى صيرى

ومنذ أن سمعت بمبدأ السيرىالىزم . .

وشاهدت بعض الرسوم السيرىالية ، أيقنت من أن صاحبي
هذا لابد من دفع إلى أحضان السيرىالية ، متبوي عرشها في
أقرب حين بلا شريك ولا منازع .

وصاحبي فنان أصيل .. فنان جوهر آ ومظهر آ ، أو هو
صورة نموذجية لفنان لا أكاد أقارن به نفسى ، حتى أقتنع
تماماً أنه ليس بي من سمات الفنان شيء ، وإني مخلوق طبيعى
مادى جامد بارد خلو من كل ما يميز عبيد الله الفنانين .

وأذكر ذات مرة ، أنى ذهبت لزيارة رجل كبير محترم
من أهل العلم والعرفان ، وجلس الرجل يرحب بي مقدماً لى
علبة سجائره قائلاً :

— سيجارة ؟

— أشكرك جداً ، أنا لا أدخن .

— عجيبة ! إذاً أحضر لك قهوة ؟ !

— ولا أشرب قهوة .

— شاي إذا ؟

— ولا أذوق الشاي .

وضحك الرجل وغمز بطرف عينيه وقال متخابثاً :
 — لو كان عندي كأساً من الويسكي لأتحفك به ، لأنه
 يعز عليّ أن تزورني ولا أقدم لك شيئاً .
 — أنا لا أذوق الخمر .
 — مدهش . . لا سجائر ، ولا قهوة ولا شاي ، ولا
 خمرة ، ولا حتى أى مكيف آخر ؟
 — أبدأ .. أبدأ ، إني غير ذى « كيف » ، لا سجائر ،
 ولا خمر ولا ميسر ، ولا ، ولا .
 — ماشاء الله ، ماشاء الله . هكذا الاستقامة وإلا فلا .
 لا بد إنك تصلى وتصوم .
 — أبدأ ، أبدأ .
 — لا تصلى ولا تصوم ؟
 — ولم أصلى وأنا لا أرتكب ما تنهى عنه الصلاة ؟
 ومم أستغفر ربى .. وأنا ما أتيت ذنباً . . إني مخلوق كافى
 خيرى شرى .. إني منهى عن الفحشاء والمنكر . . « خلقة » .
 وأغرق الرجل فى الضحك ، وظنها مزحة .
 ولكنى فعلاً كذلك ، لا سجائر ولا قهوة ولا شاي
 ولا خمر ولا حشيش ، ولا صلاة ولا صوم ولا شيء أبدأ . .
 أبعد كل هذا أكون فناناً ؟

أما صاحبي . . فقد كان فناناً بمعنى الكلمة . . فهو فوق
ارتكابه لسلسلة الأشياء المدينة عاليه ، من خمر ومكيفات
وصوم وصلاة . . كان مخلوقاً معنواً في الغرابة . . مفرطاً
في الشذوذ .

وكان صاحبي - ولم يزل بالطبع - موسيقاراً من
أساطين الموسيقى ومن عمدتها في هذا الجيل ، وكنت قد
سمعته وسمعت عنه كثيراً قبل أن ألقاه ، وكنت أميزه دائماً
بغرابة موسيقاه وطرافة أساليبه ، فهو يكاد يكون بين
الموسيقين نسيجاً وحده .

وعندما لقيته أول مرة دعاني إلى زيارته في «المعبد» .
وكان لقاءه حاراً مليئاً بالحفاوة والترحيب ، إذ تفضل
واعتبرني فناناً ، رغم خلوي من كل مميزات الفنان ، وعندما
سألني زيارته في المعبد ، لم يحاول أن يزودني بأي توضيح
عن هذا المعبد ، كأنما هو شيء كان لزاماً عليّ أن أعرفه . .
أو كأن كل إنسان له معبد يزوره الناس فيه .

ونخجلت من أن أستوضحه ، خشية أن يتهمني بالجهل ،
وخشية أن يعرف أنه ليس لي معبد ، لأنه لو كان لي معبد ،
لما سألته عن معبده .

وتركتها تمر ، دون استفسار أو استيضاح . . معتقداً

أنها دعوة عابرة ، أو « عزومة مراكبية » ، وأنه من الخير
ألا أكشف نفسي ، مادمت لن أذهب .

وانغمرنا في الحديث ، منسجمين تمام الانسجام ، حتى
حان وقت الانصراف ومددت يدي أودعه وأخبره بأنني
سعيد ببقائه متشرف بمعرفته ، وإني أتمنى أن أراه كثيراً .
وضغط على يدي بشدة ، وقال في لهجة مصرية مؤكدة :
— أنا منتظر زيارتك للمعبد .

— إن شاء الله .

— اليوم الساعة الثامنة والنصف مساء .

ورأيت الدعوة جادة ، والعزومة مؤكدة ، فبدأ على
وجهي التردد . . . وهممت بأن أعتذر . . . ولكنه أردف
مؤكداً :

— لن أقبل منك اعتذاراً ، لا بد من حضورك ، إني
أتوق إلى أن أجلس معك جلسة طويلة ، وستترك الجلسة
كثيراً . إني واثق من ذلك ، فأنت فنان يلائمك جو المعبد
الشاعري الهادي . . أنا في انتظارك .

وكان هذا بمثابة أمر منه بالحضور ، ولم يكن هناك داع
للتردد ، لاسيما وأنه كان إنساناً رقيقاً مهذباً حلو الحديث ،
لطيف المعشر والمحضر . . وأنه لم يكن — فيما عدا مسألة

المعبد — يبدو عليه أى مظهر من مظاهر شذوذ الفنانين . .
ولا سيما أيضاً أنه وفر على حرج سؤاله عن المعبد بقوله من
باب الإيضاح :

— لن تجد كثير صعوبة فى الاستدلال على المعبد فهو
كائن فى شارع كذا رقم كذا .
ثم بدأ يشرح لى بالتفصيل كيفية الوصول إلى المعبد .
ولم أحاول — رغم جهلى بالمنطقة التى يقع فيها المعبد — أن
أستزيده إيضاحاً فقد كرهت لنفسى أن يبلغ بها الجهل هذا
الحد ، وأن أبقى على قيد الحياة فى القاهرة ثلاثة وثلاثين
عاماً ، دون أن أعرف أن فى القاهرة معابد . . ولا أسعى
لرؤية بعضها .

وفى الساعة الثامنة مساء بدأت السعى للمعبد . . وظلمت
أدلف من شارع إلى شارع . . وكان الحى مظلم مقفر ،
يقع فى طرف من أطراف القاهرة المجاور للمقابر ، وأخيراً
وصلت إلى الشارع المطلوب . . وبدأت التنقيب عن النمرة ،
ولم أدقق كثيراً فى البحث عن النمرة . . إذ كنت أعتقد أن
المعبد غرض شهير مميز . . وأنه لابد مسترعى التفاتى وسط
غيره من البيوت العادية القائمة فى الشارع .
وقطعت الشارع ذهاباً وإياباً دون أن يلفت نظرى مبنى

غير عادى وسط البيوت القائمة فى الظلمة . . لا مآذن ، ولا
قباب ، ولا أى هيكل ينم عن المعبد .

وهكذا لم أر بداً من التدقيق فى البحث عن الرقم
المطلوب . . وسرت أقرأ أرقام الدور واحداً واحداً . .
حتى وقفت أخيراً أمام الرقم المقصود .

عجباً ! إنه بيت عادى كغيره من بيوت الشارع .

لا بد أن يكون هناك خطأ أو لبس ، إذ ليس على البيت
أى سمة من سمات المعابد ، ووقفت لحظة متردداً أمام البيت
وكان بيتاً عادياً مكوناً من بدروم ودورين وتحيطه حديقة
صغيرة وسور حديدى .

ومددت يدى إلى الجرس وضغطت عليه وقلت لنفسى :
— إسأل . .

وسمعت صوتاً يصيح من البدروم :
— مين ؟

وهنا وضحت المسألة ولم يعد هناك معنى للتردد ، فقد كان
الصوت صوت صاحبى الفنان ، ولم أحاول السؤال بالطبع
بل دفعت الباب الحديدى ودخلت أتلمس طريقى فى ظلمات
الحديقة إلى باب البدروم .

وسقط على الضوء الخافت الخارج من الباب ، فاستطاع

صاحبي أن يميزني واندفع في سيل من الترحيب بالحار قائلاً :
— أهلاً .. أهلاً .. يا مرحباً .. تفضل نورت المعبد .
وتفضلت .. ولكنني قطعاً لم أنير المعبد ، فقد استمرت
الظلمة الجاثمة في أرجائه والتي لم تفلح في إضاءتها ذبالة الشموع
الخافتة .. جاثمة كما هي .. لم تتأثر قط بدخولي .

وتلفت حولي ألخص المعبد .. فوجدته بدروم عادى
مقفر خرب .. مظلم رطب . لا يفترق عن أى بدروم آخر .
إلا في أن صاحبنا الفنان زاد من مظاهر الفقر والخراب ،
وأمعن في إبرازها فاصطنع من أعمال الديكور والزخرف
شقوق ظاهرة في الجدران وتهديم في الأركان .. وإسقاط
للبياض في الأسقف وهضاب ووهاد في الأرض .. وبين
مظاهر الخراب واللبؤس هذه وضع أثاث المعبد وهو بيانو
في أحد الأركان ، وعود معلى في ركن آخر .. ومقاعد
ووسائد وأرائك متفرقة هنا وهناك .

وطاف بي صاحبي في أرجاء المعبد .. طواف معجب
متفاخر .. ثم استقر بنا المقام في إحدى الحجرات الرطبة
العفنة المظلمة .

ومرة أخرى كرهت نفسي .. فقد أحسست أني غير
فنان .. أو فنان غير أصيل .. إذ لم يصادف المعبد هوى

فى نفسى ولم أشعر وأنا جالس وسط هذا الخراب والرطوبة
والظلمة بارتياح وانسجام .. ومع ذلك فلم أكن أملك إلا أن
أوافق صاحبى على إعجابه وطربه .. فإن خجلى يدفعنى دائماً
إلى أن أكون منافقاً كبيراً .

قال صاحبى :

— هنا أضع الحانى .. هنا يهبط الوحى .. وسط ذلك
الصمت المخيم والسكون السائد وبين أضواء الشموع الذائبة
المرتجفة .. هنا فى هذه الأغوار السحيقة والدياجير المعتممة ،
التي تبدو كأنها أعماق الأبدية اللانهائية .. هنا فى هذا المعبد
الملىء بالسحر والطلاسم .

وهزئت رأسى وقلت موافقاً وأنا أزج فى قولى ببعض
مترادفات الأبدية والانهائية والدياجير :

— أجل ! أجل ! إن سحره عجيب .. إنه يبدو كأنه
كهف الأقدار يمتد من بطون الماضى إلى وهاد الأبد .
وطال بنا الحديث فى كهف الأقدار بين الأغوار
والدياجير والماضى والأبد .. حتى حان وقت انصرافى
فودعته وانصرفت .

تلك كانت المرة الأولى لزيارته ، وطالت بنا الفرقة حتى
التقيت به أنا وصديق لى ذات مرة فى إحدى المحلات العامة

فأصر على أن أزوره في تلك الليلة أنا وصاحبي .
ورحبت بالدعوة فقد كان - كما سبق لي القول - إنساناً
لطيفاً .. وكانت جلسته محببة إلى نفسي .. وكان صديقي هذا
يتوق إلى رؤية المعبد بعدما حدثته عنه .

وقصدت إلى الدار .. ولم يطل بي البحث عنها هذه المرة
وسرعان ما وقفت وصاحبي أمام الباب الحديدي أدق الجرس .
ولم يجبني الصوت من البدر وم هذه المرة ، فقد كان معتماً
لا يبدو به بصيص ضوء ، بل أجابني صوت الفنان من إحدى
نوافذ السلامك وهتف بي مرحباً :
- أهلاً وسهلاً .. تفضل .

وانتظرت أن يهبط من السلامك ليقودني إلى المعبد ،
واتخذت طريقى إلى بابه ، ولكنه ناداني بصوته الجمهورى :
- إطلع هنا .. إن المعبد به بعض التصليح ولا يصالح
لاستقبال الزائرين .. تفضل .

وسحبت صديقى من يده وسرنا نتلمس طريقنا وسط
الظلمة إلى باب البيت ، وقبل أن نصل إلى الباب أضىء نور
السلم وبدأ على ضوءه مدخل البيت أنيقاً نظيفاً ليس به شيء
من قفر المعبد وخرابه .

ودلفنا من الباب إلى الفناء الداخلى .. فوجدنا السلم

الرخامى يتوسطه وقد بدا نظيفاً لامعاً . . وبدت الجدران
مطلية بالزيت ومحلاة بالنقوش . . والمدخل كله ينم عن
الروعة والفخامة والنظافة . . إلا من شيء واحد أثار دهشى
وبدا نشازاً فى المدخل الفخم . . وذهب بكل ما به من نظافة
وأناقة .

فى باطن السلم ، أو ما يسمونه « بير السلم » وجدنا كوم
من الحجارة والزلط والأتربة والردش كأنها بقايا جدار
مهديم أو آثار عمارة . . وفى وسط الكوم المترب ووراء
جدار السلم قام جذع شجرة جاف «مقاحف» ملىء بالفروع
اليابسة والبراعم المنكمشة .

ونظر إلى صاحبي وهز رأسه أسفاً وقال :

— أنظر إلى الخدم والبوابين ، ماذا كان يضيره لو رفع
هذه القاذورات وألقى بهذا الحطب فى الحديقة . . بدل أن
يتركه هكذا مشوهاً مدخل البيت .

وقلت موافقاً :

— منتهى الإهمال .

وصعدنا الدرج وأنا أسف على إهمال البواب وقذارته
وإن كان أسفى يشوبه شيء من الحيرة المستترة والشك الخفى .
ولقانا صاحبي الفنان أمام باب الشقة مهللاً مرحباً . .

وأخذنا بالحضن ، ثم قادنا إلى داخل الشقة ، وهممت بأن
ألفت نظره إلى القاذورات التي كومها البواب في بير السلم ،
لولا ذلك الشك وتلك الحيرة اللذان كنت أشعر بهما .

أجل ! لقد كان يساورني شك .. ضعيف جداً وبعيد
الاحتمال جداً ، إلى درجة أنني لم أجروء على التصريح به ..
ولكنه مع ذلك كان يساورني .

هذا الشك هو احتمال أن يكون هذا الكوم والخطب
موضوع عن قصد وبفعل فاعل .. وأن يكون الفاعل هو
صاحبي الفنان نفسه .

ولهذا السبب لم أجسر على إبداء أية ملحوظة عنها ..
ولا أن أصرح بأى رأى فيها خشية أن أبدو جاهلاً وأن
أسبب للفنان خيبة وخيبة .

أى خيبة أمل كان يشعر بها صاحبي الفنان ، لو أنه قد
وضعها بقصد معين وخطة مرسومة ، وقلت له عنها إنها
قاذورات ومخلفات تركها البواب !؟

ولذلك آثرت الصمت ، وفضلت أن أتجاوز عن كوم
الأتربة والشجرة الجافة وألا أبدى بشأنهما أى سؤال رغم
أنهما كان يشغلان حيزاً كبيراً من تفكيرى ، ورغم أنى كنت
تواقاً إلى استطلاع حقيقة أمرهما ، حتى لا أفضح نفسى ،

وأخجل صاحبي .

وجلسنا في صالة أثنت على الطراز العربي ، منخفضة
الأرائك .. مزركشة بالصدف ، تناثرت فيها آلات الطرب
والموسيقى .

وصفق مضيفي بيديه صائحا :

— أم عبده .

وأنت أم عبده ، ترفل في ثوب فضفاض أسود فأمرها
بتجهيز القهوة .

ولم تكذ تحتفي « أم عبده » حتى قفز من مقعده قائلا :

— ستحضر لك أم عبده قهوة من اليمن .. بن يمني أصلي
وسأحضر لكم أنا شيئا من زحله .. زبيب زحلاوي
على كيفكم .

وحضرت القهوة مع « أم عبده » وتوسكا ، وهي كلبة
كبيرة في حجم أم عبده ، ثم أحضر هو الزبيب .

ولم يكذ يستقر به المقام حتى قفز مرة ثانية قائلا :

— سأحضر لكم شيئا من اليونان .

ثم أحضر لنا بعض قطع من البطارخ .

وبدأنا السهرة .. وطال بنا الحديث .. وكوم الأتربة
والشجرة الجافة ما زالت تساور ذهني .. وتدس بنفسها

في تفكيرى . . والسؤال عنها يتراقص على شفتى . . ويهم
بالانطلاق .

وجأة وبلا سابق إنذار . . رأيت صديقى الفنان يميل
على ويسأل في لهجة مليئة بالفخر والكبرياء ، وهو يشير
إليهما إلى ناحية السلم :
— رأيتها ؟

واستطعت من منظره وإشارته وطريقة سؤاله أن
أدرك جليلة الأمر بوضوح ، وأن أفهم أن تشويه منظر
المدخل بالأتربة والخطب من فعل صاحبى الفنان نفسه
وليس من إهمال البواب ، وأنها قد أصبحت بناء على ذلك
مسألة تستحق التقرير .

وأجبتة بحماس شديد وأنا أميل عليه كما مال على :
— رأيتها .

— وما رأيك ؟

— بديعة . . آية في الإبداع .

وكان صاحبى الآخر يتبع المناقشة وقد بدا عليه الدهول ،

غير دارياً ما هى هذه التى رأيتها آية في الإبداع .

وبدأ الفنان تفسيره قائلاً وهو يهز رأسه من فرط

الإعجاب :

— إنها قطعة خالدة من السير ياليزم . إنها شجرة الفناء .
الفناء اللانهائى السحيق ، أرأيت الأرضية التى فى أسفلها .
إنها تمثل القفر والخراب ، وترمز إلى التراب الذى يختلط
بالرميم ، ومن وسط هذا نبت الجفاف والذبول ، قائم
كأنه العظام النخرة . إنه تابلوه رائع ، كل شىء فيه موضوع
لحكمة ولغرض ، كل فرع جاف يرمز إلى شكل من أشكال
الفناء . لو تأملت فيها ملياً لأبصرت العجب . أرأيت هذه
الزلطة الموجودة فى الركن أسفل السلمة السابعة . إنها ترمز
إلى الجحيم الخاوية ، التى كانت كالزلط . أما الحجر المقلوبة
على جانبها فهى تمثل القلوب التى كانت كالحجر . أما الشجرة
نفسها فهى تحتاج إلى دراسة طويلة . إنها ليست شجرة عادية
كما قد يبدو لك . لقد ظلت أبحث عنها مدة طويلة حتى
وجدتها أخيراً ملقاة على قارعة الطريق بعد أن اصطدمت
بها سيارة بسرعة .

وقضينا الجلسة كلها نتحدث عن شجرة الفناء . وأنى
أحمد الله الذى منّ علىّ بالستر فلم أشك له إهمال البواب
وتركه القاذورات والخطب فى بئر السلم . وأخيراً نهضنا
للانصراف وهو يقول :

— إنى أنوى أن أقدمها للعرض فى أول معرض

للسير يا ليزم . . وإني أقدر لها ثمناً يزيد على الألف جنيه .
فلا أظن هناك لوحة يمكن أن تمثل الفناء كما تمثله هي .

وخرجنا من الشقة وبدأنا نهبط السلم وقد وقف هو
يودعنا على بسطة السلم .

وفجأة رأيتة يفخر فمه ويحملك بعينه في بئر السلم ويبدو
عليه فزع شديد .

وذهلت ، ولم أملك إلا أن أنظر إلى حيث أخذ يحلق
بعينه ، أعني في بئر السلم حيث وضعت شجرة الفناء . فإذا بي
أرى المكان نظيفاً أنيقاً لا أثر فيه للأتربة ولا للحطب الجاف ،
وإذا بمدخل الدار قد عاد إليه رونقه وزالت عنه الغمة .

ولكن صاحبي لم يكن يرى هذا الرأي ، بل كان يعتبر
المسألة فاجعة وصاح بأعلى صوت :

— الشجرة ، أين الشجرة ؟ لقد سطوا عليها اللصوص ،
يا عم علي ، يا عم علي .

وهبطنا نحن الثلاثة بسرعة نبحث عن عم علي البواب ،
فإذا بنا نجده قد افترش الأرض على باب حجرته ، ووضع
أمامه منقداً مشتعلًا وأخذ يلقي فيه بين آونة وأخرى بقطعة
من الحطب ، وعلى مقربة منه كانت تجثم أشلاء الشجرة وقد
حطمها الرجل ليتدفأ بحطبها .



وهجم صاحبي على « عم علي » يمسك برقبتة ويصيح :
— أيها الجاهل الأحق ماذا فعلت بشجرة الفناء ؟
— شجرة إيه ؟

— الفناء . . . الفناء .

ووجدت البواب يوشك أن يختنق تحت ضغط يد
الفنان ، فأسرعت أخلص البواب منه خشية أن يرتكب
جريمة قتل ، وقلت له :

— يا أستاذ لا داعي لكل هذه الثورة ، إن « عم علي »
كان يقصد معاونتك .

— معاونتي أنا . كيف ؟

— ألم تكن هذه شجرة الفناء ؟
وأشرت إلى كوم الخطب المجهز للوقوف . وأجاب الفنان :
— أجل ، لقد كانت كذلك .

— فعلام الغضب إذآ ، لقد جعلها عم علي ، منتهى الفناء .
لقد أضحت فناء الفناء .

ونظر صاحبي إلى النيران وإلى كوم الخطب ثم هز رأسه
موافقاً وأجاب :

— معك حق ، هيا بنا ، برافو « عم علي » ، أنت شيخ
السيريايين .